بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثامن عشر **الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق**

الدرس: تفسير القرآن الكريم **المبحث: سورة لقمان**

التاريخ:2021\11\ 02م **كتبه: عبدالله ضيف الستري البحراني**

قبل أن تابع في الآية الثامنة، بقي هناك تعليق مختصر يرتبط بالآية السابعة، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ في أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾[1] المراجع لآيات الكتاب الكريم يجد ثلاث آيات تتناول الإعراض عن الآيات حينما تتلى، واحدة منها في سورة لقمان، فنجد في هذه الآيات الثلاث أن الذين يعرضون عن الآيات حينما تتلى على طائفتين:

الطائفة الأولى: أولئك الذين يكتفون بالإعراض استكباراً، كما في هذه الآية المباركة: ﴿وَلَّى مُسْتَكْبِراً﴾

الطائفة الثانية: أولئك الذين ليس فقط يعرضون، وإنما يبينون منشأ إعراضهم عن تلك الآيات، فيصفونها بأنها أساطير الأولون كما في سورة المطففين: ﴿إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أساطير الْأَوَّلين﴾[2] وكذلك في سورة القلم: ﴿ إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أساطير الْأَوَّلين﴾[3] في هاتين الآيتين إذا تتبعنا السياق نجد أن الحديث عن المكذبين، فنلاحظ في صورة القلم: ﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ(8) وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ(9) وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ(10) هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ(11) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ(12) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ(13) أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ(14) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(15)﴾[4] إذن الحديث عن إنسان ديدنه الكذب، ديدنه النميمة، ديدنه الاستخفاف بالآخرين. وفي سورة المطففين أيضاً: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ(10) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ(11) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ(12) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(13)﴾[5] فهؤلاء من الناحية النفسية من كان

---

[1] لقمان 7
[2] المطففين 13
[3] القلم 15
[4] القلم 8-15
[5] المطففين 10-13

ديدنه الكذب لا يأتي ويقول أنا كذاب، وإنما يحاول أن يصبغ الآخرين بهذه الصفة، فبطبيعة الحال أن يقول عن تلك الآيات التي تتلى عليه أساطير الأولين، أساطير لا واقعية لها، وإن كان ما في سورة لقمان من الناحية العملية يناظر ما في هاتين الصورتين، لكن من الناحية العملية، أما من الناحية النظرية بينهما فرق، من الناحية النظرية هؤلاء في سورة المطففين وفي سورة القلم صرحوا وقالوا أساطير الأولين، أما في سورة لقمان لا ﴿وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ في أُذُنَيْهِ وَقْراً﴾ كأنه لم يسمع هذه الآيات، لكن من الناحية العملية ذهب من الجزيرة العربية إلى أقصى بلاد الشام والروم والفرس ليشتري لهو الحديث ليصد به عن سبيل الله، فهو من الناحية العملية يريد أن يعارض آيات الله سبحانه وتعالى بلهو الحديث، فهو ينزلها منزلة تلك، وإن كان لم يصرح ذلك في مقام التعبير، هذا ما يرتبط بالآية السابعة.

مباشرة بعد أن بينت الآيات الكريمة لنا صفحتين متباينتين بما ذكرناه سابقاً، صفحة أهل الإحسان وصفحة أولئك الناس الذين يشترون لهو الحديث، مباشرة تأتي الآية الثامنة لتقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ(8) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(9)﴾[6] ترجع هذه الآية الثامنة ثانية إلى المؤمنين إلى أرباب الصفحة الأولى الصفحة النقية الطاهرة، لتفصل ما أجملته في آية سابقة ﴿أولئك عَلَىَ هُدًى مّن رَّبِّهِمْ وَأولئك هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[7] كيف يكون هذا الفلاح؟ لتأتي الآية وتقول: ﴿﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ فصلت لنا هذا الفلاح، فكما الآيات السابقة كشفت عن جزاء أولئك الذين يشترون لهو الحديث، هذه الآية كشفت عن جزاء أهل الإحسان وبشكل مفصل، في هذه الآية إذا قارناها مع الآية السابقة هناك نكات لا مجال إلا للوقوف عندها وهي ملفتة للنظر:

في الآية السابقة في مقام ذكر الجزاء قال: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ العذاب مفرد، في هذه الآية قال: ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ جنات جمع. في الآية السابقة عذاب منون تنوين تنكير، جنات النعيم معرف، من

---

[6] لقمان 8-9
[7] لقمان 5

باب التعريف بالإضافة، هذه مسألة تلفت النظر، في جزاء من يشتري لهو الحديث أفرد العذاب، وفي جزاء أهل الإيمان والإحسان جمع الجنات، فما هو السر في ذلك؟

في التتبع في كثير من الآيات، بل وفي جملة من الروايات هناك ما يفيد في بيان أن الباري سبحانه وتعالى تغلب رحمته غضبه، فلذا بعض المفسرين حمل هذا التفاوت في المقام على أنه إشارة إلى أن رحمة الله سبحانه وتعالى أوسع من غضبه.

لكن هذا المعنى لوحده لا يكفي، لا بد من تتميم له، باعتبار أن متعلق الرحمة غير متعلق الغضب، متعلق الغضب من يشتري لهو الحديث، متعلق الرحمة الذين آمنوا أهل الإحسان والإيمان، فهذا لوحده لا يكفي لفهم وسعة الرحمة على الغضب، خصوصاً إذا بنينا على أن أهل النار أكثر من أهل الجنة، فلابد من تتميم، هذا التتميم يرتبط بأن الباري سبحانه وتعالى أن يعطي العقوبة على مقدار ما وعد ولا يزيد، أما الفيوضات الرحمانية يعطيها بغير حساب، فقد يزيد، فحينئذ هنا تبرز سعة رحمته على غضبه، وإلا الأول لوحده لا يكون كافياً. فإذن النكتة في إفراد العذاب وجمع الجنة هي الإشارة إلى سعة رحمة الله سبحانه وتعالى، وهذه السعة من الأمور التي تشوق السامع والمخاطب للعمل، ولأن يكون من زمرة أهل الإحسان والإيمان.

النكتة الأخرى في المقام، هو ذلك القرن بين الإيمان وعمل الصالحات، كما هو ملاحظ في هذه الآية، بل هو من الأمور المتكررة في القرآن الكريم، في العادة إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهذه ينبغي أن تكون واضحة، أن الإيمان الذي يعتد به عند الباري تبارك وتعالى هو ذلك الإيمان الذي تُشعَل فتيلته في القلب وينعكس على الجوارح عملاً وسلوكاً، وإلا مجرد الاعتقاد من دون عمل وسلوك يصبح وبالاً على صاحبه، لا يستحق عليه المدح، ولا يترتب عليه جنات تجري من تحتها الأنهار؛ لأن هذا يدعي أنه يعرف، مع كونه يعرف لم يعمل ولم يتحرك، فالإيمان الحقيقي هو الإيمان المقرون بعمل الصالحات، وهذا هو السبب في تأكيد القرآن على ذلك، ولكن للأسف الآن نجد في كثير من مجتمعاتنا يبررون بهذا الشأن، أنه الإيمان بالقلب، أنت لماذا تقول عن رجل -مثلاً- يشرب الخمر ليس بمؤمن أو إيمانه ناقص أو عن امرأة لا ترتدي الزي الإسلامي ولا تتصف بصفات العفة والأمور المطلوبة شرعاً من المرأة، فيقول لك الإيمان بالقلب، الإيمان بالقلب! هذا الإيمان عند الله

سبحانه وتعالى ينزل منزلة العدم، بل يكون وبالاً على صاحبه، ويؤتى به يوم القيامة كما في الرواية الصحيحة في السند عندما يسأل عن قوله تبارك وتعالى ولله حجة البالغة، أن هذا الإيمان يعني عندك علم، يعني عندك علم بوجود خالق لهذا الكون، وأن هذا الخالق أرسل رسلاً وكتباً وطلب منك شريعة، فإذا كان ليس عندك علم، فتقول له الملائكة هلا تعلمت؟ فلا يكون له حجة، في الجاهل المقصر ليس حجة فكيف في العالم؟ فيقول الجاهل المقصر لم أعلم، فيأتيه الجواب هلا تعلمت، هذا في الجاهل المقصر، فكيف إذا كان عنده إيمان واعتقاد وعلم؟ إن الإيمان هذا مقارن للعلم، فإذا كان الجاهل المقصر لا يعذر، فكيف بالعالم إذا لم يعمل، فيكون هذا العلم وبالاً عليه ولا يستحق عليه المدح، الإيمان الحقيقي هو ذلك الإيمان الذي ينير القلب ويشع في الجوارح عملاً وسلوكاً وتقواً وأخلاقاً، وإلا لا قيمة لذلك الإيمان، هذا الذي يدعي أنه يؤمن بالخالق، ولكن في مقام المعاملة معه تجده أشد الناس بخلاً، لأشد الناس خداعاً، أشد الناس مكراً، كيف يتناسب الإيمان مع هذه الصفات؟ فهذه الآية بحسب تعبيراتنا الحوزوية هي على نحو العموم المجموعي، لا على نحو العموم الاستغراقي، يعني معاً، هذا المجموع المركب الإيمان والعمل الصالح هو الذي يكون جزاؤه جنات تجري من تحتها الأنهار، فإذن تقول الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ فكما أن أولئك الناس اعتقدوا بشيء وسلكوا على وفق اعتقادهم، غاية الأمر كان اعتقادهم فاسداً وكان سلوكهم فاسداً ومفسداً، هؤلاء أيضاً اعتقدوا أن الذين آمنوا وساروا على وفق اعتقادهم وعملوا الصالحات، لا مجرد العمل، عملوا الصالحات، والصالح لا يكون صالحاً إلا بأمرين:

الأول: أن يكون في حد ذاته من الأمور الصالحة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾[8] في حد ذاته من الأمور الصالحة.

والثاني: أن يكون صالحاً بحسب القصد والنية، ﴿ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾[9] فلابد لهذا العمل الذي يستتبع الإيمان أن يكون عملاً يتصف بالصلاح.

---

[8] النحل 90
[9] التوبة 91